يا بُنَيّ اركبْ مَعَنا![1]

سلامٌ عليكم يا أبنائي القاطنين بين بلاد العرب والعجم، فأنا مثلكم، هكذا ترعرعت والإنكليزية هي لغتي المفضَّلة، أحسِنها ولا أحسِن العربية مثلها، ولكنني مع ذلك سأعَبِّر لكم عن عشقي للسانها المبين، في رسالتي هذه، فانظروا عجائبها:

يستحيل على أحدنا -ولو أتقنَ اللغات الأوربية كلها- أن يفهم أيَّة كلمة من كلمات البيت التالي، وهو من الملحمة الشعرية "بايولف"[2] الذي كُتِبَ باللغة الإنكليزيّة في القرن الثامن للميلاد، أي قبل أكثر من ألف سنة :

‘hû þâ äðelingas ellen fremedon’

فالبيت يقول "كيف أظهر الأمراء عندئذٍ براعتهم في المعركة" ولا توجد كلمة واحدة من هذه اللغة الإنكليزية القديمة[3] تشبه الإنكليزية في يومنا هذا[4] ولا حتى الألمانية الأقرب إليها يوم كانت اللغات الأوربية متشابهة إلى حدٍّ ما، بعيدة عمّا آلَت إليه اليوم. ومعلومٌ أنَّ الجرمانية هي أصل اللغتين، ومردُّ ذلك هو أن اللغات لا بُدَّ وأن تتطوَّر مع الزمن.

أما العربية فقصَّتها مختلفة، فها هي أبياتٌ من شعر للنابغة الذبياني (89-18 ق هـ/ 535-604 م) كُتِبَت بالعربية قبل الشعر المذكور بأكثر من مئتَي سنة:

مَن يطَلِبِ الدَهرُ تدرِكهُ مَخالِبُهُ وَالدَهرُ بِالوِترِ ناجٍ غيرُ مَطلوبِ

في خِضَمِّ دهشتنا من بيت الشعر بالإنكليزية المذكور أدركنا حقيقةً رائعة؛ هي أنَّ الكثير مِمّا كُتِب منذ أحقابٍ قبل ذلك باللغة العربيّة -أي منذ ألف وخمس مئة سنة في العصر الجاهلي- ما زلنا نقرؤه ونفهمه اليوم !

---

[1] بحث للكاتبة نُشِر في كتاب "علماء مُكرَّمون" (دار الفكر؛ 2023) ضمن باقة من المقالات والبحوث للفيفٍ من الأدباء والباحثين. https://fikr.com/products/fikr-3218

[2] Beowulf /’بايولف‘، ملحمة شعريّة تصور مغامرات محارب اسكندنافي من القرن السادس.

[3] اللغة الإنكليزية القديمة بلهجة غرب الساكسونية؛ يُعتَقَد أنهَّا خُطَّت بين سنة 700 -1000 ميلادية

[4] ‘How princes displayed then their prowess-in-battle.’

بلى، ولدينا كتب الأوَّلين نقتنيها، نقرؤها وكأنهَّا خُطَّت لنا اليوم بقلمِ فصيحٍ بليغ.

يستحيل على أحدنا -ولو أتقنَ اللغة العربية- أن يدركَ فضلها ويُقَدِّر مقامها بالرغم من أنَّه كلمَّا ارتقى بها عِلمُهُ بانت له رفعتها فوق اللغات جميعاً. أمَّا حين يحاول دراستها من خلال القرآن بلسانه العربي المبين، فعندئذٍ يُظْهِر له هذا اللسان أمراً لم يكن بحُسبانه؛ يُظهِر له قَدْرَه هو بوصفه إنساناً مُخاطَباً من لدنِّ الرحمن.

إنَّه لسان عربيٌّ مبين علَّنا ندرك فضله.

يعترف أهل العِلم قاطبةً بفضل الثقافة العربية الإسلاميّة في ولادة عصر النهضة في أصقاع أوروبا إبان الحكم الإسلامي الذي دام في الأندلس قرابة ثمان مئة سنة (92-897 هـ/711-1492م) وبالرغم من تسمية الأكثرين لهذه الحقبة بـ "عصر النهضة الإسلامية" إلا أنَّه كان للسان العربي دور لم يُعْطَ حقَّه من الاهتمام، فإنهَّا لغة القرآن التي تخلَّلت الوجدان وأوقدت الفكر حيثما رحلت، وإنهَّا لغة القرآن التي بمقدورها إحياء ما ذَبُلَ فينا نحن العرَب وأوشكنا أن نميته عطشاً.

في الفترة التي كُتِب فيها الشعر المشار إليه بالإنكليزية كانت العربية واسطة بَثِّ المعارِف بين الناس على اختلاف أعراقهم ومِلَلِهِم في ديار الإسلام الواسعة، ومن ضمنها شبه جزيرة إيْبِيريَا الأندلسية[5] فشهدت الحقبة ذاتها تطور الفلسفة اليهودية[6] وانبثاق ما يدعى بالفلسفة السكولائية المسيحية التي اعتَمَدَت عليها الجامِعات

[5] تُسمّى اليوم (Península Ibérica) وتضمُّ إسبانيا والبرتغال وأندورا ومنطقة جبل طارق.
أمَّا ما يسمَّى اليوم أندلسيّة /Andalucia فهي إقليم يقع في أقصى جنوب اسبانيا من أكثر الأقاليم الاسبانية اكتظاظاً بالسكان (8 مليون نسمة)، يُعترف رسمياً بهوّيتها التاريخية ولها حكم ذاتي كبقية الأقاليم الاسبانية. فيها ثماني مقاطعات: المريّة، قادِش، قرطبة، غرناطة، هويلفا، جيان، مالقة، وإشبيلية عاصمة الإقليم.

[6] وكان بعض الفلاسفة اليهود مغمورين عند المؤرّخين الغربيين لظنّهم بأنهم من فلاسفة المسلمين، فهنا بعض أسماء من كان لهم أكبر الفضل في إحياء علوم الدين عند اليهود:
-المصري المولد، سعاديا بن يوسف غاون واسمه بالعربية سعيد بن يوسف الفيّومي (892 – 942) الذي مال إلى الفكر المعتزلي.
-الأندلسي المولد أبو أيوب سليمان بن يحيى بن جبيرول (1022-1070) صاحب "ينبوع الحياة/ Fons Vitae" واشتهرت نسختها اللاتينيّة ولم يُعرَف لها أصل إلى أن وَجَد (سليمان مونك /Solomon Munk) أصلها بالعربية عام 1846.
- الأندلسي المولد باهيا بن يوسف بن باكودا (1050-1120) الذي كتب كتابه الشهير "الهداية إلى فرائض القلوب" وكان ميّالاً إلى نهج إخوان الصفا، واكتُشِف له في مطلع القرن العشرين كتابٌ في المكتبة الوطنيّة الفرنسية بعنوان "معاني النفس" وكلاهما بالعربية.
-يهودا بن صموئيل اللاوي (1075-1141م) الذي ولِد في طليطلة وتركها إلى مصر فالقدس قبل وفاته بقليل. كان يكتب كل شيء بالعربية إلا الشعر فكان يؤلّفه بالعبرية على أوزان الشعر العربي .
-موشي ميمونيديس، المعروف أيضا بموسى بن ميمون (1135 – 1204).

اللاهوتية فيما بعد،[7] تأثُّراً إلى حدٍّ كبير بأعمال ابن رُشْد (520- 595هـ/ 1126-1198م) الفيلسوف الطبيب الفقيه القاضي العربي الأندلسي، كما يخبرنا الكاتب الباحث سامح كرَيّم قائلاً:[8]

> ففي الفلسفة اليهودية نجد مؤسسها: "موسى بن ميمون" (1204-1135) الذي يُلَقَّب بموسى الثاني...موسى زمانه يتأثَّر في تأسيسه للفلسفة اليهودية بآراء أستاذه ابن رشد حتى إنَّ أهم كتبه *"دلالة الحائرين"* الذي يتضمَّن التوفيق بين العقيدة الموسوية والفلسفة.. يقلِّد ابن رشد.. وقد أثارَت هذه السيطرة الرشدية غضب رجال الدين اليهودي، وبسببها حكمت محاكم مونبلييه على مؤلَّفات ابن رشد بالحرق وحرَّمت تدريس الفلسفة اليهودية.. وعلى الرغم من ذلك لم ينته أثر ابن رشد في الفلسفة اليهودية خاصَّةً وأن ابن ميمون أقام مدرسته بالإسكندرية -بعد فراره من مسقط رأسه قرطبة- علَّم فيها اليهود فلسفته القائمة على التوفيق بين العقيدة والفلسفة، وهذه المدرسة هي النواة الحقيقية للجامعة العبرية، والتي أصبحت مركزاً للبحوث والعلوم اليهودية.
> وفي الفلسفة المسيحية.. نجد أكبر فلاسفتها "القديس توما الأكويني" (1274-1225) يتبع نظرية ابن رشد في التوفيق بين الفلسفة والدين، فيحل بعض المشكلات التي كانت قائمة بين الفلسفة واللاهوت.. وقد سلك هذا الفيلسوف العظيم رشدية معتدلة، فاتَّبع منهاج ابن رشد سِرَّاً وهاجمه عَلَناً مسايرةً للسلطات الدينية في ذاك الوقت. ولم ينكشف أمر تأثره بابن رشد إلا بعد وفاته..

لكن لم تَدُم السرّيَّة طويلاً وما لبث أولو الشأن في أوروبا أن اعترفوا بعمل ابن رشد كمرجعٍ لا غنىً عنه:

> لكن هذه المواقف المناهضة للفلسفة الرشدية إبان العصور الوسطى لم تستمر طويلاً فلم يأتِ القرن الرابع عشر حتى صارت الرشدية المرجع والمصدر لكل باحثٍ ودارِس، وحتى قيل إنَّ "لويس الحادي عشر" ملك فرنسا لمَّا أراد إصلاح التعليم بفرنسا عام 1473 طلب من الأساتذة اتِّباع تعاليم ابن رشد."

تابعت اللغات الأوربية في هذه الأثناء تطوُّرها متفرّقة ومجتمعة، مقتبسةً مفردات جديدة مع العلوم والآداب التي تلقّفتها أو تبنّتها من لغاتٍ تداخلت معها، فاستقرَّت في هذه الحقبة تعابير كثيرة عربية ضمن تلك اللغات بأعدادٍ تتضاعَف مرَّاتٍ عديدة تلك بالتي عُرِّف أصلها العربي ضمن دراسات الأتيمولوجيا /أصل الكلمات لاحقاً؛ ويبدو أنَّه لم تُجْرَ دراسات شموليّة حتى يومنا هذا ولم تتأسَّس جهات علمية بهدف البحث النزيه في هذا الموضوع.[9] ثمَّ لمَّا دَخَلَت آلات الطباعةِ إلى أوروبا في القرن الخامس عشر للميلاد بدأت تتوثَّق اللغات للناطقين بها عن طريق الكتابة والنشر وصار لكل بلدٍ لُغَته النظاميّة المُمَنْهَجة وظهر أوَّل معجم للغة الإنكليزية سنة 1604 لكنَّه كان بدائيّاً وغير دقيق.[10]

---

[7] توما الإكويني (1225 – 1274)، فيلسوف وعالم لاهوت ضمن فرع الفلسفة السكولائية scholastic (التي هيمنت على مدارس أوروبا الغربية من سنة 1100 تقريباً إلى سنة 1600، وكانت الفلسفة السكولائية توفّق بالمنطق والجدل ما بين العقائد المسيحية وعناصر الفلسفة، وكان أن بلغت أعلى مراحل تطورها في فلسفة توما الاكويني وتأسست بها الجامعات من بعده). توما الإكويني 'حكيم' الكنيسة وأحد معلّميها الثلاثة والثلاثين، ويعرف بالعالِم الملائكي (Doctor Angelicus) والعالِم المحيط (Doctor Universalis) وقد بُنيَت على آثاره مدرسة فلسفية هي 'المدرسة التومية'. كان متأثراً بأرسطو وبالفلاسفة المسلمين وخاصة بابن رشد، وتعدُّ أعماله حتى يومنا هذا مراجع أساسية في الكنيسة الكاثوليكية.

[8] مقتطع من كتاب *"موسوعة أعلام المجددين في الإسلام من القرن السادس حتى القرن الثاني عشر للهجرة"* للكاتب الباحث سامح كُرَيّم، الجزء الثاني، الصفحة 77.

[9] فبالنسبة إلى الإنكليزية مثلاً، تندُرُ المراجع المتخصصة في الكلمات ذات الأصول العربية، فمعظمها قد كُتِبَ منذ عقود طوال كما نرى فيما يلي:
"Arabic Contributions to the English Vocabulary," James Peters and Habeeb Salloum (1973).
"*A History of Foreign Words in English,"* Mary S. Serjeantson (1935).
"Arabic Words in English," Walt Taylor.(1933)

[10] Robert Cawdrey's *Table Alphabeticall* (1604), compiled from the wordlists *Elementarie* (1582), by Richard Mulcaster, and the *English Schoolemaister* (1596), by Edmund Coote.

مقارنةً مع كل ذلك، يعجب المختصّون بأنَّنا -نحن العرب- نجد اليوم في معاجِمِنا اللغويَّة -وعمرها أكثر من ألف سنة- ما يبيّن لنا بقراءة سهلة أيّة كلمةٍ يَصْعُب علينا فهمها بتعريفٍ مفصَّل لها وشواهد، وما علينا إلا أن نهتدي إلى فتح تلك المعاجِم.[11]

إذاً فقصَّتنا مع العربية وتوثيقها لا تشبه غيرها؛ هي اللسان المبين الذي أرجو أنَّكم يا أبنائي بدأتم تستشعرون فضله.

توثيق العربية وانتشارِها

دأَبَ المؤمنون منذ بداية الوحي يُرَدِّدون القرآن لأجل حِفظِه عن ظهر قلب وتلاوته في الصلوات ولأجل الاهتداء به في حياتهم اليومية. ثم كتبوا آياته على قطع الخشب والجلود وسعف النخل، وفعل أبناؤهم مثلهم. وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينتشر سريعاً إلى أن وَصَلَتْ حِرفةُ صناعةِ الورق الصينية إلى تُخوم بلاد المسلمين في سَمَرقَند وتَبِعَتْها الطباعة عام 932 م، فبدأ المسلمون بإنتاج نصوص متطابقة من المصحف وتوسَّع انتشار المصاحِف. كان ذلك قبل دخول آلات الطباعة إلى ألمانيا بنحو 500 خمس مئة سنة حسب رأي بعض الباحثين،[12] ولكن بخلاف ما جرى للغات الأخرى، لم تكن آلات الطباعة هي التي وثَّقت العربية للناطقين بها! بل إنَّ غاية ما فعلته الطباعة هو أنَّها سجَّلت ونشرت في الآفاق ما كان قد تمَّ قبل ذلك بثلاثة قرون:

قبل أكثر من ثلاث مئة سنة كان اللسان العربي قد وُثِّقَ تماماً بعلاقةٍ فريدة قائمة بين المؤمنين وتلاوة القرآن؛ فما أنْ باشر المؤمنون بحفظ آيات القرآن عن ظهر قلب حال نزولها بين ظهرانيهم عام 610 م، حتى بدأت عمليّة توثيق اللسان العربي.

في أثناء انتشار الإسلام في بلادٍ شتى ذات انتماءات عرقية مختلفة، اختلطت العربية المحكيّة بصورة طبيعية باللغات المحلية، وبانتشار المعارِف اتّسعت رقعة انتشار الكلمات والعبارات العربية وتوطّدت على الألسُن.

---

[11] ومن أيسرها للبحث وضمن أقدمها معجم مقاييس اللغة للعالِم اللغوي أبي الحسين أحمد بن فارس (المتوفّى395هـ/1004م) وضع فيها تطبيقاً لنظريّتين له وهما نظرية الأصول والمقاييس فيما يتَّصِل بالمواد الثنائية والثلاثية (والثلاثية هي أكثر مواد اللسان العربي)، ونظرية النحت للمواد الرباعية والخماسية. وقد استفاد ابن فارس وأفادنا بما اصطفاه من أعمال لغوية سابقة له كانت هي المصادر الرئيسة لمعجمه المقاييس، وأهمها 'معجم العين' للخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ/718-786م) و'الجمهرة ' لأبي بكر بن دريد الأزدي (223-321هـ/837-933م)، ويورد ابن فارس ذكرهما كثيراً. جدير بالذكر هنا أن الفراهيدي هو واضع علم المعاجم ولم تكن معروفة قبله بهذا الترتيب، وهو كاشِف علمِ العَروض في الشعر، وأيضاً هو واضع رسم الحركات فوق الحروف (من فتحٍ وكسرٍ وضمٍّ وسكونٍ وتنوينٍ وهمزة).

[12] على يد Johannes Gutenberg -1444م
https://printinghistory.org/timeline/

مفتَرَق الطُرُق

لقد بقي القرآن -كتابةً ونُطقاً- مثالاً عالميّاً للعربية، فلم يطرأ على القرآن طارئ ولم تخضع ألفاظُه لكوكبةِ التحوُّلات التي أصابتْ الشعوب التي تقرؤه وتتعبَّد بتلاوته، فهنا كان مفترق الطرق:

في حين تغيَّرت مدلولات كلماتٍ كثيرة لدى الشعوب التي اتَّخذَت من العَرَبية 'الفصحى' لغةً رسمية لها ووظَّفتها في الأدب والفقه والقضاء والصحافة، وفي حين أنَّها استَحْدَثَت كلمات أخرى تناسِب المستجدَّات[13] وفي حين استمرَّت لهجاتها المحكية بالتطوُّر محلّيّاً، بقي القرآن بلسانه العربي المُبين على حالِه الذي أنزِلَ حين أنزله الله عزَّ وجلَّ على رسوله ﷺ.

ولكن بالرغم من عدم ابتعاد الفصحى عن القرآن بالقدر الذي ابتعدت فيه اللغات الأخرى عن أوائل نُسَخ كتبها السماوية، إلا أنَّه كان لابتعادها تَبِعات سلبيّة على المسلمين وبخاصَّةٍ بعد أن جَعَلَت الأقوام مفاهيمها جزءاً من الدين وتَرجَمَت الكتب الإسلامية إلى لغاتها، فأكثر المسلمين (78%) هم من غير العَرَب.[14]

لكن -بالرغم من ذلك كله، إنَّ من يقرأ القرآن -كائناً من كان- يستطيع أن يُتقِن اللفظ وذلك بفضل المقياس الضابِط للألسُنِ المسمّى علم التجويد والذي وضعه المسلمون لجودة تلاوتهم ولئلّا يلحنوا في قراءة القرآن، فلا بدَّ للمسلم الذي يتعلُّم القرآن أن يُجَوِّد في تلاوته من خلال إلمامِه بأحكام 'التجويد'؛ تلك التقنية الصوتية التي تُرَكِّز على كلِّ صوتٍ فتُحَسِّنه وتُحكِمه وتُتقِنه بإخراجه من مخرجه الصحيح لِساناً وحَلْقاً وشفتَين.[15]

خلاصة الأمر أنَّه بفضل علم التجويد لَفَظَ المُجَوِّدون، في كلِّ بِقاع الأرض، كل صَوتٍ في القرآن لفظاً صحيحاً مناسِباً لموقع ذلك الصَوت من الكلمة ومن الآية وإنْ لم يفهموا معانيها؛ لقد حافَظَ هذا الضابِط على المنطوق اللساني ليس للقرآن فحسب، بل لكلِّ ما يُلفَظ بالعربية الفُصحى.

لقد حوفِظ على منطوق الألفاظ حتى يومنا هذا، أمَّا مفهوم تلك الألفاظ فقد تأثَّر العديد منها بالتقاليد المحلّية التي كان بعضها دارجاً في بعض البلاد قبل الإسلام وتقَيَّد بعضها الآخَر بما كان قد وضعه علماء الفقه الإسلامي جنباً إلى جنب مع التعاريف اللغوية تسهيلاً على الناس دون توقُّعهم ترك الناس للغة العربية. من المؤسِف أنَّه ليس للمعاجِم العربية دور لدى طلّاب المدارس -عرباً كانوا أو مسلمين- لا من حيث اقتناؤهم لها أو بحثهم فيها

---

[13] كالنظَّارة والملعقة والطائرة والمِنْفَضة والحاسوب والهاتف وغيرها الكثير الكثير.

[14] وربَّما يفسِّر ذلك ما يبدو من ازدراء النساء لدى فئةٍ مسلمةٍ تتكلَّم الأوردو فتحبسهنَّ في البيوت وتمنع عن صغيراتهنَّ التعليم معتبراتهنَّ عاراً وخروجهنَّ عاراً، ذلك أنَّ كلمة 'أنثى' في الأوردو urdu هي 'عَورَت'؛ ولغة الأوردو من المجموعة الهندية- الآرية وهي اللغة الأولى لنحو 70 مليون إنسان، واللغة الثانية لأكثر من 100 مليون إنسان، وأصولهم غالباً من الباكستان والهند.

[15] مع وجود مخارج عديدة تفصِّل النطق في كلِّ منطقة من هذه المناطِق الثلاث.

أو حتى حفظهم أبجديتها، ومَرَدُّ ذلك أنَّ التربويّين المختصّين قد ألحقوا كل موضوع بالعربية فيه بعض من الشعر أو النثر أو القرآن- ألحقوه بفهرس مفردات يحوي ما اختاروه هم تبياناً للمعاني.

هكذا لم تكتمل لنا بعض الألفاظ بمقصدها أيام الرسالة ومفادها -فعلى سبيل المثال- صار الشكر عندنا مجرَّد إبداء معروف في مقابل نعمة بعد أن هجرنا معنى العمل باليسير الذي بين أيدينا حتى يغزر،[16] فهل نستغرب أنَّنا -نحن العرب- أصبحنا أقل الشعوب إنتاجاً؟

كما أنَّنا لم نُراعِ فوائد البِرّ -استباقاً وفاءً صادقاً بواجباتنا - كالـ "سَّابِقِ الْجَوَادِ " الْمُبِرُّ" .. لِأَنَّهُ إِذَا جَرَى صَدَقَ، وَإِذَا حَمَلَ صَدَقَ."[17] ولم ننتبه إلى تبعات الإثم -وهو التأخّر، فتخلَّفنا[18] عن الركب العالمي.

وهنا أتوجَّه إلى أبنائي بالاعتذار عمَّا كنتُ قد غفلتُ عنه في الماضي وغفل عنه جيلي، فإنّي لخوفي من قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤) أجهد أن أتوب إلى الله توبةً نصوحاً، وليس النصح إلا الملاءمة والإصلاح.[19]

الحاصل هو أنَّنا لمَّا أثِمنا وتأخَّرنا عن كل بِرّ أصبحنا نجد أنفسنا متخلّفين عن الركب العالمي الذي سار بدوننا، وصرنا نحن العالة في حين كان جيل الأوَّلين مِنّا هو المُعيل، ولئن لم نستقِ من منبع علمهم الآن فسيفوتنا الأوان، وهنا يأتي دوركم أحباءنا!

إنَّه القرآن الذي استقى منه الأوَّلون واستمسكوا به فهماً لِلسانه العربي المبين فكان لهم حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم.

إنَّ القرآن العربي وحده هو كتاب الله لدى المسلمين، ولا يمكن لأية تفاسير أو ترجمات أن تأخذ مكانه مهما ارتفع شأن كاتبيها، وإنَّ على المهتمّ بشؤون المسلمين -سلباً كان اهتمامه أم إيجاباً-[20] أن يَعِيَ هذه الحقيقة.

---

[16] فمثلاً، يعرَّف الشكر في الاصطلاح بأنه: "*عبارة عن معروف يقابل النعمة سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب.*"
من كتاب 'التعريفات الفقهية' لمؤلفه محمد عميم الإحسان المجددي البركتي (الناشر: دار الكتب العلمية 1407هـ - 1986م)
فالمعنى جميل لكنَّه غير مكتمل، فأمَّا ما يتوصَّل إليه من خلال السرد القرآني فالآيات في الشكر دالّة على العمل شكراً وأنَّ الله شكور، فالحسنة بعشر أمثالها أكبر دليل على هذا المعنى. ثم استعانة بمعاجم اللغة نجد أنَّ الشكر هو الرضى باليسير لإنتاج الكثير، ففي معجم المقاييس لابن فارس:
"الشُّكْرُ:-الثَّنَاءُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَعْرُوفٍ يُولِيكَهُ. وَيُقَالُ إِنَّ حَقِيقَةَ الشُّكْرِ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ. يُقُولُونَ: فَرَسٌ شَكُورٌ، إِذَا كَفَاهُ لِسمَنِهِ الْعَلَفُ الْقَلِيلُ .
-الامْتِلَاءُ وَالْغُزْرُ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ حَلُوبَةٌ شَكِرَةٌ إِذَا أَصَابَتْ حَظًّا مِنْ مَرْعًى فَغَزُرَتْ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: شَكِرَتِ الشَّجَرَةُ، إِذَا كَثُرَ فَيْئُهَا".. انتهى

[17] كما قال ابن فارس. فالابن البار مثلاً هو الصادق السابق إلى الوفاء بسمته "ابنا"، ولكلٍّ مِنّا أدوارنا التي علينا أن نبرَّ بها.

[18] أَثَمَ: الْهَمْزَةُ وَالثَّاءُ وَالْمِيمُ تَدُلُّ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْبُطْءُ وَالتَّأَخُّرُ. يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ.

[19] ابن فارس: مُلَاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وَإِصْلَاحٍ لَهُمَا. أَصْلُ ذَلِكَ الثَّاصِحُ: الْخَيَّاطُ.

[20] لإبعاد المسلمين عن دينهم أو لتقريبهم إليه.

طوبى للغرباء

يحكي التاريخ للباحث في خفاياه عظيم تقدير المسلمين لقرآنهم في أعسر أحوالهم وأهولها، فها هو ذا يعود بنا إلى سَنَة 1567م وما سبقها ولحق بها من كوارث لن نقف عندها، وقتئذٍ أمر الملك الاسباني فرديناند بِطَرْدِ كل من لم يعتنق المسيحيّة من اسبانيا[21] ومَنَعَ استخدام اللغة العربية بأي شكل، فكان على المسلمين الأندلسيين الذين سمّاهم الاسبان 'موريسكوس' التخلص من جميع المواد المكتوبة بالعربية، وأوَّلها القرآن. لا زالت قصصهم تخرج اليوم إلينا بواسطة الباحثين وحَفَدة المسلمين الأندلسيين وقد عاد أعداد منهم إلى الإسلام قاصّين لنا تاريخ أجدادهم الذين بقوا في اسبانيا معتنقين المسيحية قهراً محاولين التمسُّك بجذورهم بوسائل شتَّى تحت خطر القتل والتعذيب.[22] ثم نعلم أنَّه في خضمِّ فاجعتهم واحتراق قلوب المسلمين الآمِنين عليهم أُفْتِي لمن تعذّرت عليه الهِجرة منهم[23] جواز مسايرة الإسبان بما ينافي معتقداتهم الإسلامية ما دامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان.

مَن يقرأ عن تلك الفترة لا يتمالك إلا أن يتألَّم -بل ويبكي- في مواجهة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فالقلوب إنْ صَفَت تأبى التظالُم بأي حالٍ من الأحوال.

لقد خفَّفت فتوى وهران من بؤس مسلمي الأندلس، وإليكم ما قد استهلَّ به الشيخ العلّامة أبو العباس احمد ابن بوجمعة المغراوي الوهراني (المتوفّى 920هـ /1514م) رسالته، أورِد مقتطفات منها علَّنا وشبابنا نشعر بما أنعم الله به علينا:[24]

> "الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر، ممن أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.
>
> بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني.
>
> كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى..."
>
> " .. أن الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة، ولو عوماً في البحور. وإن مُنعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط

---

[21] لقد طُرد المسلمون واليهود معاً، وكان الأطفال يُخطفون قرب السفينة التي يقفون عندها مع ذويهم لكي تستقلّ السفن الكبار وحدهم، وكانت بعض السُفُن تُغرَّق بمن فيها ولا تصل إلى اليابسة، ولذا أثر الكثيرون البقاء في اسبانيا.

[22] وأساليب التعذيب المهولة التي اتّبعتها محاكم التفتيش لمن عدَّتهم كفّاراً فاسدين (بتقدير كهنتهم المتواطئين) هي أساليب موثّقة لديهم بالرسومات والبيانات ولوائح التسعيرات الدقيقة. يمكن اليوم، لمن يحتمل المشاهدة، زيارة متحف غرناطة المخصص لأدوات تعذيب محاكم التفتيش، واسم المتحف "قصر المَنسيّين /Palacio de los Olvidados"... .
يعَدُّ عام 1231م البداية الرسمية لمحاكم التفتيش عندما عيّن البابا أوائل "المحققين بالكفر والفساد " ولم تنتهِ محاكم التفتيش الإسبانية حتى القرن التاسع عشر حين كان آخر حكمٍ بالإعدام في عام 1826.

[23] هذا بعد تعذيب وقتل أعداد كبيرة من المسلمين وخطف أولادهم وبيعهم عبيداً وتهجير من تبقّى، وكانت النساء لِعِظَم الفاجعة يلقين بأنفسهن مع أبنائهن من أعالي تلة قلعة 'لامويلا' التي بناها المسلمون (وسمّيت قلعة كونسيغرا بعد ذلك وتطلّ على سهل لامانشا)، وهذا حسب قول المؤرّخ الإسباني المقيم في المنطقة Miguel Aparici Navarro.

[24] وقد أرَّخها 'غرة رجب 910 هجرية' وتوافق 1504/11/18م. وهي جديرة بالاطّلاع عليها كاملةً، موجودة على الانترنت/الشبكة العنكبوتية.

في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمَّم به، فأقصدوا بالإيماء... وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة.... .... وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيَّرتموه..
ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً
بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خيره
"يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى"
غرة رجب 910 هجرية، (18-11-1504م).

" ...وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيَّرتموه.."

طوبى للغرباء الذين لم يجدوا قوَّةً لتغيير صورهم وظاهر حالهم ولكنَّهم حافظوا على ما في قلوبهم وقلوب أبنائهم فابتكروا وسيلةً فَذَّة لبقاء التواصل بين بعضهم بعضاً، مرتبطاً بتراثِهم، وذلك بواسطة لغةٍ سريّة عجيبة لم يُكتَشَف أمرُها حتى أواخر القرن التاسع عشر[25] حين بدأت تظهر تحت الأبنية العتيقة المهدَّمة كتبٌ وصحائف بلغةٍ مجهولةٍ؛ حُفِظَ بعضها، ولمّا اهتُمَّ بأمرها بعد سنوات وعُوِينَتْ اكتُشِفت حقيقتها:

هي 'العجمية' أو 'الجميادو' (aljamiado)،[26] لغة اسبانيّة استحدَثَها المسلمون آنذاك فكتبوها بحروف عربية ولفظوها بلفظ إسباني لتلعب دورًا مِحورياً في حفظ هويّتهم وتوثيق تاريخهم بعيداً عن الرقابة وهي التي أوصَلَت إلينا علمهم وأدبهم، وقد تكلَّم مطوَّلاً عنهم الدكتور علي بن المنتصر الكتاني.[27]

حتى إنَّ الباحثين الغربيين يرون أنَّ الموريسكوس وكتاباتهم التاريخية يستحقّون مكانةً مميزة ضمن ما يُدعى بأدب العصر الذهبي الإسباني، لتوثيقهم معاناة شعبٍ قاوم طمس الهوية، وأبى الاندثار باذلاً جهداً جبَّاراً في مكافحة مصير تاريخي حتمي إثرَ سقوط الأندلس وانتهاء الوجود الإسلامي فيها.

---

[25] عام 1884 وتحت ألواح أرضية لبيت متهدم في بلدة Almonacid de la Sierra في غرب أراغون كشَفَ عمال بناء عن مخبأ يحتوي على مجموعة من المخطوطات الملفوفة، كان الظنّ بدايةً أنَّها من النصوص العربية التي كانت ممنوعة تحت طائلة القتل أيام محاكم التفتيش إلى أن دُرست فبانت حقيقتها.

[26] وتلفظ بالاسبانية اليوم 'الخميادو'.

[27] الدكتور علي بن المنتصر الكتاني (1941-2001) المؤرخ الباحث في شؤون الأقليات المسلمة، وله عدّة مؤلفات في شأنهم، من بينها كتابه *'انبعاث الإسلام في الأندلس'*.
يقول الدكتور الكتّاني:
"إن الثقافة الألخامياداية وجب علينا كمسلمين الحفاظ عليها وإخراجها من القبر؛ لأن هذه ثقافة إسلامية يتيمة، وقد أنقذت بوجودها في المكتبات الإسبانية، ولكن – مع الأسف الشديد – في البلاد العربية لا يُهتم بها؛ لأنها مكتوبة بالحروف العربية بلغة لا نفهمها، وهي كذلك مهجورة في المكتبات الإسبانية لأنها رغم أنها إسبانية؛ تعبر عن حضارة ليست تلك الحضارة اليهودية المسيحية التي بُنيت عليها الحضارة الأوروبية. ولكن هي حضارة إسلامية.
وقد اشتهر الكثير من الكتاب بتلك اللغة؛ أسماؤهم العربية الإسلامية غير معروفة، ومن عُرف منهم؛ عُرفوا بأسمائهم الإسبانية؛ فمثلا: المنسيبو دي أفيلو، أو: الأمورا دي أوبيد La Mora de Ávila، هذه سيدة كانت فقيهة تدور على بيوت المسلمين لتعليم المسلمين وأبنائهم سر المباديء الإسلامية. لامورا دي أفيلا. أفيلا: مدينة، يعني: مسلمة أفيلا... يعني جيل كلهم مسلمون، كلهم كُتاب، هؤلاء مجاهدون مجهولون لم نعرفهم، جعلوا المسلمين في الأندلس يتمكنون من البقاء على إسلامهم رغم سقوط دولتهم لمدة تزيد على أربعة وخمسة أجيال رغم الاضطهاد المتواصل."

ويبدو غريباً أن نجد أدب 'الجميادو' عند شعوب أخرى -وقد أُضْفِي الاسم ذاته على كتاباتهم التي كتبوها بالحروف العربية لتقرأ بلغاتهم المحكيّة، ومنها شعوب منطقة البلقان التي اعتنقت الإسلام تحت حكم العثمانيين واسم أدبهم هو 'أدب الجميادو العثماني'.[28]

لكن بالرغم من أن الجميادو كانت لغة أدب هذه الشعوب وقد نَقَلَت آثارها به -مع ما حفظته من أحاديث ومدائح نبويّة وتفاسير للقرآن وآراء فقهية- إلا أنها دأبَت تحَفظ القرآن كما أنزل بلسانه العربي المبين وتستقي من آياته الدروس والسلوان.[29]

لقد عَكَسَ فعل مسلمي اسبانيا بالذات انتماءهم إلى دينهم ولهفتهم في الحفاظ على صِلَتِهِم بكتاب الله وحرصهم ألا يفقد أبناؤهم القدرة على اتِّباع قرآنه، مدركين أنَّ من يفقد قراءة القرآن سيتَفَلَّت منه دينه؛ ولقد تمكَّن هؤلاء المجاهدون من الحفاظ على هوّيتهم ودينهم أربعة أو خمسة أجيال من بعدهم.

أربعة أجيال أو خمسة...!

هاهنا اعتذاري إلى الله أوَّلاً، ثم إليكم أبنائي ثانياً....

ما الذي حلَّ بنا نحن العرب ولساننا ما زال رطباً بتلاوة القرآن العربي الذي لم ندرك فضله ولم نفيه حقَّه حتى زالت عنَّا الفصاحة وصار أبناؤنا يتهافتون على كل مقروء سواه؟

وما حال أبنائنا الذين سهرنا الليل على تعليمهم، نرى أغلبهم يكتبون ويقرؤون بلهجاتهم العاميّة التي لا تكاد تُعَدُّ عربية لركاكتها، أو يتَفَوَّهون بألفاظٍ شبيهة بالعربية قد خطّوها بأحرف لاتينية، أو نراهم يكتبون ويقرؤون بلغةٍ ما أجنبية؟

أمَّا السؤال الأساس فهو: ما هو الجهد الذي سنقوم به نحن الآباء والمربّين في تعليم الأبناء والحَفَدة اللسان العربي المبين لئلّا نكون وإياهم مِمَّن اتَّخذوا هذا القرآن مهجورا؟

هي لغة القرآن التي بمقدورها إحياء ما ذَبُل فينا نحن العَرَب، وإن تعسَّر علينا تعليم أبنائنا في الغربة لسانه المبين فلنطلعهم بأي لسان على ما في آيات القرآن من بيان، وفي أثناء ذلك لنسقي قلوبهم بأقلِّ القليل الذي يُبقي الذِكرَ فيها حَيّاً ليربو بعد حين إن شاء الله، وما أقلّ القليل إلا الخطِّ العربي يُحسِنونه قراءةً وكتابةً كما فعل مسلمو الأندلس.

وهنا أعود إليكم أبنائي فأرجوكم ألّا تستهينوا باللسان العربي فهو أهمُّ لسان، بل إنَّ العربية أمُّ الألسُن!

[28] Bejtexhinjve

[29] قصة النبي يوسف عليه السلام كانت مما اشتهر بين قصصهم المتناقلة.

العربية في اللغات الغربية

لن نستشهد بالدكتور أحمد داوود (1942-) فحسب وهو الذي قد يتهمه الغربيون بالانحياز[30] وهو القائل:

> "أما العربية الفينيقية فهي لغة اليونان وإيطاليا القديمة؛ إذ إن العرب السوريين هم أول من استوطنها وشاد فيها المدن ونقل إليها أسباب الحضارة. ويكفي شاهداً على عروبة هذه اللغة أن أباطرة روما من الفينيقيين مثل سبتيمو سفيرو، ومن السوريين مثل فيليب العربي أصروا على أن تكون كلمة (العربي) هي اللقب الذي كانوا يتخذونه لأنفسهم وهم على كرسي روما الإمبراطورية".[31]

بل سنستشهد بالعالِم الفرنسي بيير روسسي (1920-2002 م) المُلَقَّب بمؤرِّخ العالَم العربي الذي يقول إنَّ علماء اللغة الغربيين كانوا قاصدين في تعتيمهم على ما في حضارة اليونان من علاقةِ بُنُوَّة مع الحضارة الأم وهي العربية القديمة:

> "فاللغة الإغريقية عربية بمقدار ما تكون العربية إغريقية، في هذا الفرق قريب، الفرق الملحوظ الذي لا تكون اللغة الإغريقية فيه سوى لغة نقل، ذلك أنَّ الإرث الثقافي والعلمي والديني الجوهري قد زوَّدَنا العرب به. ينبغي ألا نعكس الأدوار، وألَّا نجعل من اليونان، الذين ليسوا إلا وَرَثة، آباء أسلافِهم الروحيين العرب. نحن نقف وجهاً لوجه أمام تدمير بنائنا الثقافي الوشيك الوقوع الذي لن تكفي صيغة الاتفاق الحُرِّ أبَداً لحمايته وحفظه... إن ذلك يجب ألَّا يبعد عنّا أنَّ السلام لن يأتي من التأكيد على إيماننا بالقيم التي هي قيمنا، ولكن من كون هذا الإيمان حاجة للحقيقة والشرف. وإنَّنا لنطلب، من أجل ذلك معذرة العلماء الأفاضل، فسجلَّات علم اللغة مترعة بالنظريَّات السريعة، أكثر من أن تكون مبنيّة على أساس قوي، فدراسة لغة الإغريق وتاريخ الإغريق ينبغي أن تُتناوَل مرَّة ثانية من الجذور."

ربَّما لو كنّا بدأنا بتعريفكم أحبائنا حين كنتم صِغاراً ببعض الكلمات العربية التي انسلَّت انسلالاً إلى كل بيت

---

[30] ليس فقط كل ما في اليونان وايطاليا القديمة عربياً سورياً، بل إن العلماء اللغوين أكدوا أن لغة الحضارة في جزر الأطلسي هي أيضاً عربية سورية، وليس هذا فحسب، فالآثار والكتابة العربية الفينيقية اكتشفت في القارة الأمريكية في شمالها وفي وسطها وفي جنوبها. يجب التنويه بأن هنالك من يستبعد كل هذه النظريات ويعتبرها مغلوطة -ولكلّ رأيه- لكن تجربتي الشخصية قد بيَّنت لي بوضوح مقاصد بعض الغربيين في طمس أثر حضارتنا ومعالمها.

هنالك الكثيرون يتحدَّثون عن العالم المكسيكي 'خوسيه ايبيزاير لامارنيا' الذيى يقول في هذا المجال انّ الفينيقيّن هم اوّل من وصل الى امريكا قبل كريستوفر كولومبوس، وكان اكتشافهم للعالم الجديد من باب الصّدفة كذلك قبل 26 قرنا. فيشير إلى أنّه بعد حجر بارابيا/ Paraíba Inscription تمّ العثور في تواريخ غير بعيدة على دلائل اخرى تؤكّد وجود الفينيقيين في البرازيل، ففي مصبّ نهر الامازون تمّ اكتشاف اشكال خزفية وفخارية عليها عدّة رسوم فينيقية التي يمكن للعالم أجمع أن يراها ويتامّلها في متحف أميليو غويلدي/ Emílio Goeldi في مدينة بيليم (بيت لحم بالبرتغالية) في البرازيل، كما تمّ العثور على عدة معالم في مناطق الغابات في أدغال ماتو غروسّو/ Mato Grosso ذات خصائص تشبه الى حدّ بعيد البقايا والآثار الاركيولوجية التي اكتشفت في نواحي صيدا (لقد وجدتُ ما يشير إلى صدق هذه الأقوال لكنني لم أعثر على اسم هذا العالِم المكسيكي في الكتابات العربية).
أما العالم الامريكي سيروس غوردون /Cyrus Gordon فيؤكد من جهته (وهو الذي أثبت صحّة كتابات الحجر الفينيقي الذي عثر عليه في البرازيل)، يؤكّد في دراسات له متعدّدة منشورة حول هذا الموضوع أنّه قد تمّ العثور على كنوز نقدية رومانية مختلطة بمسكوكات عربية في اعماق البحر على السّواحل المحاذية لفينيزويلا.
عالم امريكي آخر وهو الدكتور مارك ماكمنامين/ Mark McMenamin أستاذ علم الآثار في جامعة 'ماونت هوليوك' في ماساشوسيتس، اكّد بدوره وجود مسكوكات فينيقية تحمل خرائط العالمين الجديد والقديم، كما أشار إلى أنّ نقوداً ومسكوكات نحاسية إيقونية فينيقية اكتشفت ايضاً في امريكا الشمالية... والأبحاث جارية..

[31] تاريخ سوريا الحضاري القديم 1- (المركز)، ص63-64.

غربي، فأخبرناكم بأنَّ طبلتكم أو طبلِيَّتكم التي تجلسون إليها هي ذاتها table وأنَّ شربكم المليخ[32] هو ذاته milk[33] وإن مشجناه كما تحبّون مع الفاكهة سيكون المشج mix وإن حلَّيناه لكم بالسُكَّر فهو sugar .. وإنَّ دُمَيتك يا ابنتي التي تحبّينها هي dummy وسيارتك يا بُني التي تكرُّ بها كرّاً أمامي هي car.. ربَّما لو كنّا بدأنا معكم بذلك منذ نعومة أظفاركم لأدركتم ما هي العربية.

ثم حين تعلَّمتم قواعد اللغات الأجنبية لو أخبرناكم بمعاني الأصوات عند ابن جنّي[34] وأن اللغة العربية ما زالت تحتفظ بالارتباط الأصيل بين الصوت البشري والمدلول حيث يشير المنطوق إلى شيءٍ محسوس، فمثلاً بما أنَّ صوت 'الراء' (خلاف أي صوت آخر) سيكرر نفسه بالضرورة ولا يمكن إخراج "ر" واحدة ، فمدلول الـ "ر" إذاً هي التكرار أو الاستمرار.

لذا فالصوت الذي تسمعونه في الإنكليزية والفرنسية الذي يفيد تكرار الفعل هو ذاته "re" في كلمات مثل (rewrite, renew, revision, remodel)وغيرها الكثير.

ثم، كوننا نعلّمكم سنخبركم بأنَّ أهم ما يدل على هذه الصلة المتأصلة بين البشر ومنطوقهم هو في جميع المواليد حَول العالَم- وفيكم- في تركيبكم اللاواعي لصَوتَين يرتبطان بمدلولهما بحسب معاني الأصوات -كما حبل السرّة- بارتباطٍ فطريٍّ تماماً، فصوت الـ 'م' وبها نضمّ شفتينا يعني الضمّ واللَّمّ، وصوت الـ 'ا' وهو صوت رجع الصدى فيعني الرجوع: إذاً فأنتم -كما كل طفل في العالَم- ناديتم أوَّل ما ناديتم: ماما!

تطلبون ماما أن تضمّكم إليها بندائكم: "ضمّيني ولمّيني، ارجعي إليّ، ضمّيني ولمّيني، ارجعي إليّ!!"

أمَّا صوت ال 'ب' -الذي يشير إلى انتهاء الضمِّ واللَّمِّ- سمعناه منكم كثيراً وخاصّةً حين فُطِمتم -أحباءنا- وبدأتم بالمشي طالبين مرافقة أبيكم.. "بابا" ، ثمَّ لما كبرتم صار يعتلي في دخولكم وخروجكم إلينا صوت فَتْحِكُم الباب وإغلاقه.. وقد سُمّي الباب باباً لما في حركته من فتحٍ وغلقٍ مستمر يُنهي الضمَّ واللّم.

وهنا لا بُدَّ أن أسأل المختصّين ومحبّي العربية:

ألا يجدر بنا في عصر المعلوماتيّة هذا إدماج حقائق عن اللسان العربي في التعليم -ولو باعتبارها نظريّات- فمعرفة أبنائنا بأصول الكلمات الأجنبية وأصل معاني الأصوات سيسهّل عليهم، ليس تعلّم العربية فحسب بل

---

[32] 'المليخ' من أسماء اللبن (الحليب) أيام انتشار الإسلام، فالمَلْخ: "قَبْضُكَ عَلَى عَضَلَةٍ عَضًّا وَجَذْبًا؛" هو الاجْتِذاب في اسْتِلَالٍ؛ يقال: امتلخ يده من يد القابض عليه."
فكلمتا 'milk'الإنكليزية ونظيرتها الألمانية 'Milch' مثلاً هما من الجرمانية وكانت تُلفَظ نهايتها كالصوت 'خ' .. وقال علماء اللغة الغربيون إنَّ الكلمة من جذرٍ افتراضي (بروتو: لا وجود له حقيقي بل هو مفترض) ويحسب أنّه هندي أوروبي، ويشير الاسم (حسب ظنّهم باللغة الافتراضية) إلى حركة اليد أثناء حلب أنثى الحيوان الحلوب. لكن لو أرادوا توضيح أصلها فعلاً- وكذلك أصول آلاف الكلمات الأخرى- لقالوا إنها عربية الأصل، فما نسمّيه اليوم حليباً كان اسمه العربي 'مليخ' وإليكم ما جاء في معجم لسان العرب قبل أكثر من ألف سنة :
المَلْخ والمَليخ: اللبن الذي لا ينسلُّ من اليد." انتهى.

[33] "melg: Proto-Indo-European root meaning "to rub off," also "to stroke; to milk," in reference to the hand motion involved in milking an animal. https://www.etymonline.com/word/*melg-?ref=etymonline_crossreference

[34] في كتابه الشهير 'الخصائص'

تعلُّم لغاتٍ أخرى أيضاً لاشتراك الكثير منها بعددٍ غير قليل من أصول الكلمات والأصوات. ثم عموماً: لا بُدَّ أن تضفي هذه النظرة -بمعلوماتها التي كانت مفقودة حتى الآن- روحاً إنسانيةً شموليةً، فمثلاً: ألا يجدر بأبناء عالَمِنا الواحِد أن يدركوا أنَّ كلمة 'love' ذاتها أصلها عربي؟ 'Love' هي كلمة يعرفها العالَم المنادي بالمحبة الفاقِد للتعاطُف، لا يعرف أصلها، يرميها جُزافاً لا يعي ما فيها من الملازمة والودِّ والإخلاص والجودة ما نعرفه ونشعر به نحن حين ننادي بها قائلين: لبَّيك اللهم لَبَّيك![35]

وإنَّ هذا النداء نسمعه اليوم من اسبان أندلسيين جاهدوا وآبائهم عبر العقود لأجل الحكم الذاتي فتمَّ لهم ذلك عام 2007 وقد تعرَّفوا إلى جذورهم فغيّر الكثيرون أسماءهم الاسبانية إلى عربية وتعلَّموا القرآن عوداً إلى أصولهم مفتخرين بها وبنوا المساجد بحريّة وفنَّدوا تاريخهم بعد أن تغيَّرت حالهم وحال بلادهم،[36] فالله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

لقد سمعتُها مراراً وتكراراً من أبناء جيلي حين أتحدَّث مع الشباب عن العربية وعن القرآن: "إنَّك تخوضين معركةً خاسرة" .. فأجيب أنَّ مثل هذا القول لا يزيدني إلا إيماناً وتسليما.

وفي الخِتام، لا يسعني إلا أن أتوجَّه إليكم أبنائي، أدعوكم إلى العربية التي بها سيعرف كلّ منكم قَدْرَه إنساناً مُخاطَباً من لدنِ الرحمن... أدعوكم خوفاً على من قد يلجأ منكم إلى عاصِمٍ لا يعصمه، ظانّاً أنّني وأمثالي نناديه إلى سفينةٍ غارقة، أنادي كلّاً منكم قائلةً:

يا بُني... اركمْ (وليس اركب) بل يا بُني اركمْ معنا...

أضمُّ شفتَيَّ ضمَّاً بصوت الميم كما أراد الله وعلَّمنا رسوله ﷺ أن يُلفظ هذا النداء تجويداً؛ حيث تُصَوَّت الميم وحدها -بلا باء- لتفي بمقصود الكلمة.. تُعرِب عن خفّي الحنان إعلاماً بما طمح إليه قائلها من الضمّ واللّم، وإيذاناً بما أراد الله تبليغنا بلسانٍ عربي مبين: *يا بُني اركمْ معنا...!*

[35] حسبما يقول علماء اللغة الأوربيون، لقد دَخَلت كلمة love اللغة الإنكليزية عن طريق لغة (غير موجودة ولكنّها) مُفتَرَضة لما في اللغات الأوربية من أصول تبدو مُبهَمة وهي لغة الـPIE وفيها كانت ربّما تُلفظ الكلمة 'leubh' .. وقد سَمّوا هذه اللغة المفترضة بروتو هندي أوروبي.. proto indo-european (بروتو أي مفترضة)، لغة نظرية لا إثبات لها افترضت فغطَّت الكثير من الكلمات ذات الأصل العربي والتي اكتشفتُ منها العشرات خلال ترجمتي لبعض معاني القرآن إلى الإنكليزية.

لبّ: اللَّامُ وَالْبَاءُ. أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى لُزُومٍ وَثَبَاتٍ، وَعَلَى خُلُوصٍ وَجَوْدَةٍ.
فَالْأَوَّلُ أَلَبَّ بِالْمَكَانِ، إِذَا أَقَامَ بِهِ، يُلِبُّ إِلْبَابًا. وَرَجُلٌ لَبٌّ بِهَذَا الْأَمْرِ، إِذَا لَازَمَهُ وَحَكَى الْفَرَّاءُ: امْرَأَةٌ لَبَّةٌ: مُحِبَّةٌ لِزَوْجِهَا، وَمَعْنَاهُ أَنَّهَا ثَابِتَةٌ عَلَى وُدِّهِ أَبَدًا. وَمِنَ الْبَابِ التَّلْبِيَةُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: لَبَّيْكَ. قَالُوا: مَعْنَاهُ أَنَا مُقِيمٌ عَلَى طَاعَتِكَ . وَالْمَعْنَى الْآخَرُ اللُّبُّ مَعْرُوفٌ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَالِصُهُ وَمَا يُتَّقَى مِنْهُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَقْلُ لُبًّا. وَرَجُلٌ لَبِيبٌ، أَيْ عَاقِلٌ. وَقَدْ لَبَّ يَلُبُّ. وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبَابُهُ.

[36] تتألف إسبانيا اليوم من 17 إقليم ذو حكم ذاتي ودستورها يؤكد على وحدة تراب البلاد ووحدة الأمة الإسبانية، ولم يعُد لها دين رسمي بل إنَّ إسبانيا اليوم تعزّز حرية الأديان.